

الظواهر الفنية فى شعر خرنق

صاحبة الديوان غير شهيرة؛ حيث كان العصر الجاهلى لا يسمح لمثيالاتها بالتربع على عرش الشهرة، ولا غرو فهو العصر الذى وأد الفتاة، وهضم حقوق المرأة، وعاملها معاملة السائمة، فكانت تملك ولا تملك، وتورث ولا ترث، ولقد نعى القرآن ذلك فقال - تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ سورة التكوير.

وإذا كان عدد وفير من الشعراء الرجال الذين عاشوا فى الجاهلية، ولا بد أنهم كان لهم شأن كبير فى هذه الحقبة وذلك العصر ومع هذا بخل علينا الزمان بأخبارهم فلا غرو أن يضمن التاريخ علينا بأخبار شاعرة «كخرنق بنت بدر»، كما أن شأن النساء كان محدودا فى ذلك العصر.

و«خرنق» لم تنظم الشعر فى غير ظاهرتين من الظواهر الفنية وهما: «الرتاء والهجاء».

أما الرتاء: فقد أوقفته أو كادت على رتاء زوجها، والذى قتل فى غارة له على «بنى أسد» عند عقبة لهم تسمى «قُلاب»، وهو

يوم أغار فيه «بشر بن عمرو بن مرثد» زوج «خرنق» على بنى أسد
فقتلوه، فرثته بهذه الأبيات:

أعزلتى على رزء أفيقى فقد أشرقتنى بالعذل ريقى
ألا أقسمت آسى بعد «بشر» على حى يموت ولا صديق

وهذان البيتان جاءا فى غاية الروعة والتصوير، حيث تعالَن
«خرنق» العذال أن يخففوا وطأة العزل واللوم، فلقد رزئت بمصيبة
جلل، وخطب جسيم، ولقد آلت ألا تحزن بعد «بشر» على
أحد، كما أننا نلمس من شعر الخرنق فى رثائها لزوجها بالوفاء؛
حيث إنها أعلنت أنها لن تحزن على حى يموت ولا صديق بعد
رحيل «بشر»، ثم تقول:

وبعد الخير «علقمة بن بشر» إذا ترت النفوس إلى الحلوق
وبعد بنى طبيعة حول كما مال الجدوع من الحريق

فلقد شبهت الشاعرة من صرع من أهل «بشر» حوله بالجدوع
التي قد مالت بالاحتراق، كما قال الآخر:

ألا من رأى قومى كأن سراتهم نخيل أتاها عاصف فأمالها
منت لهم بوالبة المنايا بجنب «قلاّب» للحين المسوق
فكم «بقلاّب» من أوصال خرق أخی ثقة وجمجمة فليق

ندامى للملوك إذا لقوهم حبوا وسقوا بكأسهم الرحيق
هم جدعوا الأنوف وأوعبوها فما ينساع لى من بعد ريق
وبيض قد قعدن وكل كحل بأعينهن أصبح لا يليق^(١)

والمعنى: لكثرة ما يبكين على من فقدن من رجالهن لا يبقى
فى أعينهن كحل، فإن الدموع التى يذرفنها على هؤلاء الرجال
تمحو الكحل الذى وضعه فى أعينهن للزينة، وذلك دليل على
غزارة الدمع المنهمر من العيون، كما أنه دليل على الأسى العميق
والحزن الشديد، ثم يقول:

أضاع بضوعهن الصاب «بشر» وطعنة قاتل فمتى تفيق
وقالت «خرنق» ترثى «بشرا» ومن قتل معه فى يوم «قُلاب»:
لا يبعدن قومى الذين هم سم العداة وآفة الجزر
تقول الشاعرة: إن هؤلاء القوم لأعدائهم كالسم، وهم آفة
الجزر حيث كانوا يكثرن من نحرها للضيفان، ولا يجفون على
شئ منها، فكانوا كالأفات بالنسبة لما ينحرونه للضيوف من إبل
وغيرها، ثم تقول: إنهم أعفاء الفروج، وإنهم ينزلون عن الخيل
عن ضيق المعترك، فيقاتلون على أقدامهم، وفى ذلك الوقت

(١) الأسى: الحزن، يقال: آسيت على الشئ آسى إذا حزنت عليه - والبة:
حى من بنى أسد - قلاب: اسم جبل - الخرق: الجواد الذى يتخرق بالمعروف،
ومعنى يتخرق بالمعروف: يتسع فيه.

يتداعون، وهم موصوفون بالعفة طيبون؛ لأن العرب تكنى بالشيء عما يحويه ويشتمل عليه، فتقول:

النازلون بكل معترك والطيبين معاقد الأزر

ثم تقول: إنهم فرسان مغاوير؛ حيث يضربون ويقاتلون الأعداء في حومة الحرب والطاعنون بأذرع شعر، فتقول:

الضاربون بحومة نزلت والطاعنون بأذرع شعر^(١)

والخالطون نحيتهم بنضارهم وذوى الغنى منهم بذى الفقر^(٢)

ثم تقول «خرنق»: إن شربوا وصبوا، وإن تركوا الشراب وعظ بعضهم بعضا وتواصوا بعدم النطق بالفحش، فنراها تقول:

إن شربوا يهبوا وإن يذروا يتواعضوا عن منطق الهجر^(٣)

كما تقول: إن هؤلاء عددهم كثير، فإذا ركبوا الأمر اختلطت أصواتهم حتى تكاد لا تفهم شيئا مما يقولون، وذلك من التصويت

(١) يروى: الضاربون والطاعنون، كما يروى: النازلون والطيبون. والبيت من الشواهد النحوية على قطع النعت، ولذلك تعددت رواياته وكثرت المصادر النحوية التي أوردته.

الأزر: جمع إزار - والمعاقد: موضع عقد الإزار والضاربين والطاعنين.

(٢) النحيت: الساقط الخامل الذكر - والنضار: الرفيع، يقول: فلا يرغب شريفهم عن وضيعهم، وفي اللسان: النحيت: الدخيل فى القوم، والنضار: الخالص النسب.

(٣) الهجر: المنطق الفاحش.

والصياح وزجرهم الخيل، وهذا تشبيهه فى غاية الروعة؛ فقد استطاعت الشاعرة أن ترسم صورة واضحة ومعبرة لهؤلاء القوم الذين كثر عددهم بحيث لا تستطيع أن تميز أصواتهم أو تتعرف على ما يقولون لكثرتهم الفائقة وحركة ما يركبون من خيول للقتال، فهى حقا صورة معبرة عن الحركة واللغط والأصوات، مع يسر فى اللفظ، وقوة فى المعنى، ورحابة فى الخيال، فتقول: قوم إذا ركبوا سمعت لهم لغطا من التأيبه والزجر^(١) ثم تقول: إذا نتجت خيلهم فرحوا بها، ولكن سرورهم بالخيال لا يجعلهم يخرجون عن الحدود اللائقة، فلا يجهل أحد منهم على صاحبة ولا يتناول عليه، فتصفهم هنا بالغنى مع التواضع، ويروى البيت:

وتفاخروا فى غير مجهلة فى مربط المهرات والمهر^(٢) وسأطل أمتدحهم وأثنى عليهم ما حييت، فإذا ما ضمنى القبر انقطع ثناى.

ونحن نرى أن الثناء لا ينقطع بموتها؛ حيث إن شعرها باق، فهى إن ماتت فلن يموت شعرها، فإذا ضمها القبر وانقطع

(١) اللفظ: الذى لا يكاد يفهم - والتأيبه: التصويت، يقال: أيهت به إذا صحت به - ويعنى بالزجر: زجر الخيل.

(٢) المهرات: جمع مهرة، والمهر: تريد به جنس الأمهار الذكور.

مديحها عنهم فستظل مدائحها خالدة خلود الزمان ، وبخاصة
أنه من الشعر الجيد ، قال الشاعر :

يموت ردىء الشعر من قبل وجيده يبقى وإن مات قائله
وقالت «خرنق» ترثى «بشرا» :

ألا لا تفخرن «أسد» علينا بيوم كان حيناً فى الكتاب
فقد قطعت رؤوس بنى قعين وقد نعتت صدور من شراب
وأردينا «ابن حسحاس» فأضحى تجول بشلوه غبى الذئاب

تقول «خرنق» : لا يفخر «بنو أسد» علينا بنصرتهم فى يوم
على قومى وقتلهم «بشرا» ، فالحرب سجال ، وإذا كان هؤلاء قد
نالوا منا فى يوم «قُلاب» فقد قطعت منهم رؤوس كثيرة ، وشفى
الغليل ، وأثلجت الصدور ، وقتلنا «سبع بن حسحاس» وجالت
بأشلائه الذئاب ، حيث تفرقت أشلاؤه ، وتمزقت أوصاله ،
وأصبحت طعاماً لأسود الشرى ، وذئاب الفلوات ، فليس هناك
مجال للتفاخر علينا أو النيل من كرامتنا ، فقد انتقمنا لأنفسنا
وثأرنا لشرفنا .

ثم تقول : عندما سمعت «بنو أسد» صياح القوم وهم يتذامرون
ويحض بعضهم بعضاً على القتال ، نفرت «بنو أسد» ولكنها عند
النقار واجهت قوماً ليسوا بحلفاء ، بل هم من خاصة القوم ، وهم

صبر عند اللقاء إذا ما ثار النقع وانعد العشير فوق الرؤوس وبرقت
السيوف اللوامع مبددة ذلك الظلام الدامس من شدة القتال،
والسيوف لحدتها تحن للعظام، وتقطع الدرع وتنفذ من الخوذة
إلى الهام فيقول:

سمعت «بنو أسد» الصياح فزاودها عند اللقاء مع النفار نفاارا
ورأت فوارس من صليبية وائل صبوا إذا نقع السنايك ثارا^(١)
بيضا يحززن العظام كأنما يوقدن من حلق المغافر نارا^(٢)
وقالت أيضا ترثيه:

يا رب عيث قد قرى عازب أجش أحوى فى جمادى مطيرى
وهنا تشببه «خرنق» بالسحاب الماطر الذى يحدث صوتا
مصحوبا بالرعود مع غزارته وانهماره فى الكرم والجود وعلو
الهمة وعموم النقع، بيد أنه غيَّبه الموت فأصبح ذلك المطر بمنأى
عنهم، ثم تصف الشاعرة جواده وأنه فرس قصير الشعر نشيط
قوى غليط، فتقول:

(١) صليبية وائل: يعنى من أصولهم وليسوا بحلفاء ولا موال.
(٢) البيض: السيوف - المغافر: جمع مَغْفَر بكسر الميم وسكون العين وفتح الفاء، وهو
زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة، وقيل: هو رفرق الخوذة.
أجش: صوت به رعدة - مطر عازب: بعيد الموقع - والجشة: البحة - أحوى:
أسود وهو أغر ولمساته.

قاد به أجرد ذا مبيعة عبلا شواه غير كاب عثور
فألبس الوحش بما فاته والتقط البيض بجنب السدير
ذاك وقد ما يعجل البازل الكوماه بالموت تشيهه الحصير^(١)
يبغى عليها القوم إذا أرملا وساء ظن اليلمعى القرور
وهو جواد كريم ينحر ناقته الكوماه الغليظة التى اكتنزت
لحما وشحما إذا أرملا وقل زادهم واشتد البرد وكانوا فى حاجة
إلى الدفء والطعام.

كما أن الهجاء جاء فى شعرها قليلا ، ولعل شعر «خرنق» طواه
النسيان وأغفله التاريخ ، وقصر الرواة فلم يعنوا بروايته ، شأنها
شأن غيرها من النساء ، حيث لم يحظ النسوة فى ذلك العصر
باهتمام الرواة والمؤرخين.

ومن شعرها فى الهجاء ما هجت به «عبد عمرو» فقالت :
ألا ثكلتك أمك «عبد عمرو» أبا الخربات آخيت الملوكا
هم دحوك للوركين دحا ولو سألوك لأعطيت البروكا^(٢)

(١) البازل: ذكرا كان أو أنثى ، وذلك فى السنة التاسعة أو الثامنة - والكوماه:
الناقاة العظيمة السنم طويلة - البيض: المراد به بيض النعام - أرملا: قل زادهم -
القرور: الذى يجد البرد - الصحيح الظن.

(٢) دحوك: دفعوك - دكوك: ضجعوك - المشيح: الحاد ، والمشيح: الحذر -
والمسسل: الحديدية المعترضة من اللجام فى فم الفرس - الخربات: جمع خربة ، وهى
الفساد فى الدين والخلق.

ألا سيان ما «عمرو» مشيما على جرداء مسملها علوكا
فيومك عند زانية هـلوك تظل لرجع مزهرها ضحوكا
وذلك هجاء مقذع؛ حيث تقول الشاعرة هاجية «عبد عمرو»
فتدعو عليه بالهلاك؛ لأنه فاسد الدين والخلق، وصاحب فعال
قبيحة، ويقضى يومه عند الزواني الفاسقات الفاجرات المهلكات،
وهنا تصفه بالخنا والفحش.

وعلى أية حال فإن شعر «خرنق» مع ضالة ما وصلنا منه
ووجد متناثرا بين أظابير الكتب ليدلنا على شاعريتها، وسعة
أفقها، ورحابة خيالها، وهو مرآة صادقة لما كانت عليه من
موهبة فذة، وعبقرية تضعها في مصاف شعراء العصر الجاهلي،
ولا غرو فإنها أخت «طرفة بن العبد البكري»، وعاشت في عصر
يعدّ بلا ريب من أزهى عصور الشعر، ألا وهو العصر الجاهلي.

